مقتضيات الحال تنبئ أنّ ذلك غير ممكنٍ، ومن هنا كان لجوئه إلى الرمز أسطوريًّا كان أم تاريخيًّا أم قَصَصًا شعبيًّا، فكتب (سرّ الحاكم بأمر الله) مثلما كتب (مأساة أوديب) مثلما كتب (مسمار جحا) لتكون هذه كما تلك تعبيرًا عن موقف الكاتب من قضايا المجتمع الذي يعيش فيه، ورؤيته لما ينبغي أن يكون فيه من الرؤى والقيم السّامية في قالبٍ أدبيٍّ لا يخلو من تخييلٍ. وهو لم يعالجها في قالبٍ صحافيٍّ ليقرأها أهلُ زمانه ثمّ تُنسى وحسب – وإن لم يخلُ أدب باكثير من تهمة الوقوع في أسر أدب المناسبات - ولكنّه كتبها مسرحيّةً ذات بناءٍ مميّزٍ لتعاد قراءتها في كلّ زمانٍ، وهذا هو الأدب، وذاك هو صنيع الأديب.

موقع الأديب
علي أحمد باكثير
www.bakatheer.com

التماثل والتخالف في بنيتي الحكاية

بين مسرحيّتي "إينيس" للحكيم و"أوزيريس" لباكثير"

تتماثل تجارب الأدباء مادّةً ومقصدًا على تخالفها في المعالجة الفنيّة، وقد تتّحد في اتّخاذ مصدر ثقافيٍّ مّا معينًا تنهل منه المادّة الأساس لبناء العمل الفنّيّ، وليكن ما يكون ذلك المصدر أدبًا أسطوريًّا أو تاريخًا أو غير هذا وذاك، ولقد يلتزم أديبٌ بمنطوق المادّة المعرفيّة التي يتوسّل بها مادّةً لعمله الأدبيّ فيقف عند ظاهرها أو يتجاوزه قليلا إلى شيءٍ من التفسير، وقد يعدل عن معظمه فيعيد تشكيله نسيجًا ورؤيةً ليصنع منه عالمًا مختلفًا عمّا كان عليه في مادّته الأولى وعناصره الأساس.

وهاتان المسرحيّتان، (إيزيس) لتوفيق الحكيم و(أوزيريس) لعلي أحمد باكثير صورتان إبداعيّتان تجسّدان ما تضمّنته الأسطر السالفة من قول. فكلتاهما اتّخذت من أسطورة إيزيس وأوزيريس مادّةً لمعالجتها المسرحيّة، وكلتاهما تجاوزت منطوق الأسطورة وأعادت بناء عناصرها على نحوٍ يتّسق مع غايات المبدعين ومقاصدهما من التّأليف.

وأمّا مسرحيّة الحكيم "إيزيس" فهي التجربة المسرحيّة الأولى التي اتكأ فيها الحكيم على مصادر فرعونيّةٍ مباشرةٍ ليصوغ منها عملا مسرحيًّا على شدّة ولوعه بالفكرة الفرعونيّة حول مفهوم الزمن والبعث والخلود.

وأمّا باكثير ف"أوزيريس" هي التجربة الرّابعة في نتاج أدبه المسرحيّ بعد "أخناتون ونفرتيتي" و"الفرعون الموعود" و"الفلاح الفصيح". ولهذا دلالته في نقد الأدب وتحليله.

وكلا العملين يثيران جملةً من القضايا النقديّة منها ما يتّصل بغاية الأديب من توظيف الأسطورة في بناء عمله، أيستخدمها لإعادة بنائها من حيث هي بنيةٌ حكائيّةٌ فيحسن عرضها لأبناء عصره ولا غير؟ أم يتجاوز ذلك إلى نوعٍ من التّشكيل الجديد الذي يتّصل بمتن الأسطورة وينفصل عنها في آن؟ وهل يقف عند حدود تفسيرها في ضوء معطيات العصر وتنوّع منتجاته الثقافيّة؟ أو يتخطّى ذلك إلى حدّ التوظيف الدلاليّ الذي به تتحقّق مقاصده من الإبداع؟

وهنا ينتج سؤالٌ: أيقف الأديب عند منطوق الأسطورة كما ورثها من منابعها الأولى؟ أم يتخيّر منها ما يشاء، ويدع منها ما لا يشاء، ويضيف إليها عناصر لا تمتّ لها بصلةٍ فيزاوج بين معطى موجودٍ بالفعل ومعطى موجودٍ بالقوّة؟ وهل هو – إلى ما سلف – مُلْزَمٌ بتفسير الأسطورة كما وردت في مصادرها المعرفيّة؟ أو له الحقّ في منحها تفسيرًا بعيدًا عمّا أُثِرَ عنها من تفسيرٍ؟ وأخيرًا كيف يكون موقفنا من العمل المبدَع، أنقرؤه في ضوء تفسيره الموروث؟ أم نتجاوز ذلك التفسير إلى ما ينتّه العمل المبدَع من معانٍ ودلالات؟

هذه الأسئلة وسواها سنحاول تبيان أبعادها من خلال قراءة هاتين المسرحيّتين (إيزيس) لتوفيق الحكيم، و(أوزيريس) لعلي أحمد باكثير. على أنّنا سنبدأ أوّل ما نبدأ بمعرفة صورة

إيزيس وأوزيريس في متن الأسطورة

ذكر العارفون بالأدب المصريّ الفرعونيّ أنّ هذه الأسطورة (هي من أقدم الأساطير المصرية وأروعها)، وهي تتّصل بتصوّر المصريّين لعملية الخلق الكونيّ في بعض صوره، حيث (خال القوم الأرض والسماء زوجين من ذكر وأنثى (جب ونوت)، وخالوهما أول الأمر رتقًا، ثم انفصلتا فانتشر الهواء بينهما، ثم ولد لهذين الزوجين من البنين اثنان، هما أوزير وست، ومن البنات اثنتان هما إيزة (إيزيس) ونبت حت (نفتيس).

فأمّا (أوزير) فقد تزوج من أخته (إيزة)، وورث عن أبيه ملك الوادي، فسار في الرعية بالعدل والحكمة، وقدم للناس من الأعمال الصالحات ما جعله في مجال الخير إمامًا ومثلا، وعلم الناس الزرع والضرع وشرع لهم الأحكام والقوانين، وطاف في أقطار الدنيا يبشر بالخير والعدل. وطبقًا للأساطير المتصلة بأوزير، فإن الناس في ذلك العصر المبكر كانوا ما يزالون في بربرية يأكلون لحوم البشر، وأن أوزير قد علمهم الحضارة، وما يجب أن يؤكل وما لا يؤكل، وأوضح لهم كيفية زراعة الحبوب كالقمح وكروم العنب، كما علمهم كذلك طريقة عبادة الآلهة. وكتب القانون من أجلهم، بعون من كاتبه (تحوت)، الذي خلق الفنون والعلوم وأعطى الأشياء أسماءها، وأنه قد حكم بالمنطق وليس بالقوة، ثم بدأ ينشر علمه في بقية العالم، تاركًا

زوجه (إيزة) نائبة عنه تصرّف الأمور في مصر، وقد اصطحب معه في مهمته كثيرًا من الموسيقيين واستطاع عن طريق المناقشة وأغاني الأناشيد، أن يقنع الناس باتّباع وسائله إلى الخير والنجاح والفلاح، وهكذا كتب له نجحا غير قليل، في تعليمهم زراعة القمح والشعير والعنب فضلا عن بناء المدن، ثم صعد في النهر حتى بلغ إقليم الحبشة، فعلم أهله أصول الزراعة وفنونها، وخطط لهم القرى والمدائن، ثم تولى عنهم هابطًا مع النيل، فأخذ يقوي شواطئه وجسوره، ويشق لمائه الجداول والمصارف.

وأما أخوه (ست)، فقد تزوج من أخته نفتيس (نبت حت)، ولكنه كره أن يؤول ملك الوادي الكبير الأخضر السعيد إلى أخيه أوزير، وغاظه أن يرى له ذلك المكان الرفيع، فامتلأ قلبه حسدًا له، وحقدًا عليه، وسولت له نفسه قتل أخيه، ثم ترك هذا الإنسان يودع دنياه على هذا النحو المروع، الذي أنزله من قلوب القوم منزلة الحب والتقديس والإجلال، ومن ثم فسرعان ما لطخ أتباع (أوزير) شخصية (ست) بالسواد منذ لحظة مولده، فزعموا أنه لم يولد في الوقت السليم، ولا في المكان الصحيح، فلقد ألقى بنفسه من رحم أمه، وانفجر من جنبها.

وما أن يمضي حين من الدهر، حتى يسبغ الرواة صفة الواقعية على مقتل أوزير، فذهبت رواية أن (جب) قد قسم مملكته بين ولديه ست وأوزير، على أن يأخذ الأول مملكة الصعيد، وأن